هؤلاء علموا سلامة موسى ..

بقلم غالي شكري

كتاب « هؤلاء علموني » هدية سلامة موسى للنقاد . انه الاضواء والظلال والخطوط التي اسهمت في رسم خريطة حياته . وهو يصدر الكتاب بعبارة جوته « كن رجلا ولا تتبع خطواتي » مدللا على انه ، وان كان قد تربى وتعلم على ايدي هؤلاء العظماء ، الا انه كان مستقلا في اختيار طريقه الخاص. وفي ذلك يقول ، ان المؤلف العظيم ، لا يدعنا نرى الدنيا بعينيه ، ونشهد على الناس والاشياء بضميره . وانما هو الذي يعلمنا الاستقلال رائين ومشاهدين في آن واحد ، وان كانت رؤيته قد فتحت بصيرتنا .

وسلامه موسى يرى ان المؤلفين هم الذين يغيرون العالم . وتعريفه للمؤلف هو انه الانسان الذي لا يتحفنا بضجة مفتعلة من الزخارف اللغوية المبهرجة ، وانما هو الذي يصنع شيئا من اجل تطوير حياتنا وتغييرها . هو الذي يوقظنا على معنى جديد او ينبه وعينا على فكرة جديدة . ولا ريب ان جولة سلامه في اوروبا اكسبته هذا التعريف . فقد سافر اليها في وقت كان الشرق فيه ينعم برقدة عميقة ، اما اوروبا فكانت تغلي بثورات متوالية في العلم والصناعة والتاريخ. وربما كانت نظرية التطور واصل الانسان هي البذرة الاولى التي التقطتها روح الشاب المصري ، وانبتت فيما بعد فلسفة حياته القائلة بان التطور ليس قاصرا على الجانب البيولوجي من الانسان ، وانما التطور يشمل التاريخ والاخلاق والاقتصاد ايضا . ويبرز هنا المفكر الانجليزي هربرت سبنسر جليا واضحا

والكتاب الذي يفخر سلامه بتاليفه هو « حياته » ، ولذلك نرى ان جميع الذين علموه ، لم يعزلوا حياتهم عن مؤلفاتهم ، بل كانت هذه الحياة في الاغلب هي مؤلفهم الاول .

وحين يقول سلامه موسى ان المؤلفين يغيرون الدنيا ، فهو لا يقصد ان الافراد يبدلون وجه التاريخ، بل يستهدف العكس تماما . فالساسة والعسكريون في نظره لا يصنعون تاريخ البشر بسياساتهم وحروبهم . والناس فقط ، بتفاعلهم الحي مع الظروف المحيطة بهم ، هم الذين يصنعون تاريخ انفسهم . ففي الحربين العالميتين ، لم يرجع السبب في اشعالهما الا الى اختراع الالة البخارية ، التي لم يكن توصل جيمس واط الى التفكير في اختراعها الا تعبيرا عن حاجة اجتماعية نشأت خلال ظروف تاريخية معينة . وهذه الالة عممت بدورها الانتاج الكبير في الصناعة وفي ظل النظام الاقتصادي الاستغلالي الذي كان سائدا في ذلك الحين على اوروبا ، كان الانتاج الكبير يدفع الدول الاحتكارية الى الحرب فالاستعمار . « والدلالة هنا ان السياسي والعسكري قد سار كلاهما في اثر المفكر او المخترع الذي انبعث الى التفكير والاختراع بقوات اجتماعية اخرى »

وحين يتامل سلامة الشخصيات العظيمة التي اثرت في حياته تغييرا او توجيها ، ويبحث عن القوة الجذبية التي ربطته بهم ، يجد انها ثلاثة طرز .

* واما الطراز الاول ، فهو أولئك الذين تتسم حياتهم او مؤلفاتهم بغلواء حين يحيون او يفكرون على القمة او الذروة . فهم نيتشه في جنونه المقدس يحيل عمره الى مغامرة فلسفية، ويدعونا الى ان ننسلخ من رواسب الخرافات الماضية ، ونتولى بانفسنا مصير مستقبلنا . وهم دستويفسكي في حبه الغامر للبشر ، والاحساس الديني الذي تتذبذب به اوتار نفسه . وهم غاندي الذي يكافح امبراطورية سوداء بكلمات عذبة من الطهر والشرف ، فيخجل منه العالم ويسلم باستقلال الهند .

* واما الطراز الثاني ، فهو اولئك الذين اعطوه منهجا للحياة . فهم جوته الذي عاش طالبا مدى حياته ، يمتص وجدانه كافة التجارب والخبرات في ميادين العلم والثقافة والادب والسياسة . وهم برناردشو يجعل من ادبه كفاحا للظلم والاستبداد والدناءة والقبح . وهم ويلز يرفع الصحافة الى مقام الفلسفة ، فيدرس شئون العالم في تدين بشري جديد .

* واما الطراز الثالث ، فهو اولئك الذين امدوه بالمعارف الخصبة والافكار الحوامل . مثل فكرة التطور التي احدثت له مركبات ثقافية كانها العقد النفسية في المريض تدأب في تفرع ، ولكن مع التسلل والتستر. ولقد استطاعت هذه الفكرة الداروينية ان تجعل من حياته استطلاعا دائما. وهم فرويد الذي ساعده في تشريح النفس البشرية ، وهم اليوت سميث الذي فتح له ابواب الحضارة الانسانية .

يقول سلامه موسى « هؤلاء علموني . اكسبوني الحياة الغالية التي عاشوها على القمم ايحاءات كانها صلوات بالقلب . او اعطوني منهجا اعيش به عيشة الخدمة والكرامة والشرف مع الرضى بالتضحية . او غرسوا في ذهني غراسا صالحة تنمو وتتفرع كانها نبت ينير خلايا المخ ويسطع انوارا تقشع ظلام الجهل »

عار العائلة

والمعلم الاول في حياة سلامه موسى هو داروين . واللقاء الاول بين التلميذ واستاذه حدث منذ نصف قرن . كان عمر سلامه حينذاك عشرين عاما . شاب شرقي انخمت ذهنه فلسفات الشرق وغيبياته ، فهرب الى اوروبا ، عساه ان يستنشق هواء جديدا . وهناك التقى بداروين . كان عمر كتابه « اصل الانواع » نصف قرن . وعثر الشاب المصري على الهواء الجديد الذي ملأ رئتي اوروبا في ذلك الحين باسم «التطور».

شيئان هامان عنى داروين بتوضيحهما في كتابه : اولهما « معارف » تكاد تكون حقائق عن اصل الانواع في الحيوان والنبات ، وانها جميعا تعود الى اصل واحد ، او اصول قليلة . وثانيهما « منهج للدراسة » هو ان الاستقرار لا تعرفه الطبيعة ، وان الانسان والحيوان والنبات في تغير مستمر .

وقد فرضت هذه النظرية نفسها على كافة ميادين الحياة . اذ لم يقف داروين عند حد اكتشاف النظرية ، فقد سبقه الى ذلك بصورة غير دقيقة وولاس وجده (1). ولكن داروين انتهى الى تعليل التطور، بتنازع

(1) جد داروين

البقاء الموجود في الطبيعة ، فالقوى يبقى ، اما الضعيف فعوامل ضعفه مكفلة بافنائه . ومن هنا تتطور الحياة نحو الافضل ـ اي للاقوى . وتسلطت هذه النظرية ـ كما قلت ـ على كافة ميادين النشاط الانساني. فالتقطها رواد الفلسفة الاستعمارية في ميدان السياسة ، وبرروا بواسطتها استغلالهم للشعوب الضعيفة . وفي الاخلاق لم يصبح مهذبا من يعطي الفقير قرشا او من يهب المريض علاجا . وفي الفلسفة اصبح الحكم للصفوة الممتازة .

وبادر الى تأكيد هذا التفسير الملتوى لنظرية داروين ، قسيس انجليزي يدعى مالتس قال ان الناس يتوالدون حسب نظام تضاعفي ٢،٤،٨،١٦الخ بينما المحصولات لا تنتج الا على نظام حسابي ١،٢،٣،٤ الخ فاذا عاش الناس بلا مرض او جوع او حرب ما استطاعت المحصولات ان تكفي هذه الملايين المهولة . وقد فات المفكر المتشائم ان التقدم العلمي لن يتيح لرقعة الارض فرصة السيادة . كما اننا حين ننقل نظرية بيولوجية ـ كنظرية التطور ـ الى بقية العلوم الاخرى يجب ان نراعي بدقة ووعي طبيعة تلك العلوم في اختلافها الحاسم عن علم البيولوجيا .

وعظمة داروين هنا هي النظرية نفسها ، التي عثر الذهن البشري بواسطتها على مفتاح العالم . وقد حمل داروين ـ عن جدارة ـ عبء النقلة التاريخية من التسليم الغيبي للموجودات ، الى الحقيقة العلمية لهذه الموجودات ، وهي انها في تطور مستمر غير مستقر ، وتفجرت بالتالي في اعماقنا شهوة البحث والاستفسار والقلق والكشف وعدم الرضا والاطمئنان المؤمن الى عقائد الاولين .

ويقول سلامه موسى ص ٣٩ « لا اعرف كاتبا تأثرت منه اكثر مما تأثرت من داروين . فانه اعطاني القلب الذي أزن به احيانا ، واحيانا اهدم به التقاليد . وجعل التطور مزاجا تفكيريا ونفسيا عندي ، بل جعله عقيدتي البشرية النائية عن الغيبيات . وقد اصبحت اقيس الامم بمقدار تطورها، واقيس آمالي الاجتماعية بمقدار ما اجد من قدرة على التطور. ذلك ان التطور في اساسه منطق علمي ، ولكنه استحال عندي الى عقيدة قلبية واذن يجب ان اعد داروين المعلم الاول الذي علمني » . وهذا حق . فالقلب الانساني في حاجة دائما الى الدين . وحين القى سلامه موسى ، وراء ظهره ، بالمفهوم الغيبي للدين ، احس بالقلق .. ثم اعاد له داروين ثقته في الانسان واحترامه للحياة ، بالمفهوم البشري للدين .

*

وكان لامارك ـ قبل داروين ـ قد علل التطور بالعادات البيئية ، اي ان الوسط المحيط بالكائن الحي من طعام واعداء ومناخ يؤثر في تركيبه العضوي ، فيغيره الى شكل يتلاءم مع الوسط . فاذا جاء نسله ورث هذا التغير . وتتراكم التغيرات على مدى الاجيال بالمئات والالوف ، فتظهر سلالات جديدة تختلف عن اسلافها . ثم تتراكم التغيرات في هذه السلالات حتى تفصل ما بينها وبين الاسلاف ، وتصبح السلالات القريبة انواعا مستقلة . وقد سلم داروين بهذا التعليل مع تمسكه بتنازع البقاء، حتى جاء وايزمان ـ المفكر الالماني ـ فعارض لامارك قائلا ان الصفات جميعها وراثية ، وان الوسط لا يؤثر اطلاقا في الكائن الحي. والتقى بذلك مع نظرة الراهب مندل . وقد اخذ سلامه موسى برأي وايزمان فترة طويلة ، يصف نفسه خلالها بانه « فسد » ذهنيا . فما دامت الوراثة ثابتة وتتحكم في الموجودات ، فلا ضرورة لبقاء الضعفاء والمرضى والمتأخرين .

والتجربة العلمية فقط هي التي ارغمت سلامه موسى ان يسلم لوايزمان . والتجربة العلمية ايضا هي التي أزاحت عنه هذا الكابوس حين وقع في يده كتاب « وود جونس » في العادة والوراثة. وقد اثبت فيه ان الوسط يؤثر في الكائن الحي تأثيرا مباشرا في تكوين العادة التي تورث بتعاقب الاجيال .

وقد شحنت نظرية وايزمان ـ قبل انهيارها ـ نفس سلامه موسى بالريبة والقلق . اذ وجد ـ على ضوء هذه النظرية ـ ان اصلاح الوسط والبيئة ضرب من العبث ، كما ان جمود الوراثة في نقل الصفات ، اصبح قريب الشبه جدا من الغيبيات والقدرية . وهما شيئان نزعت جذورهما من اعماق سلامه نظرية التطور . ومن هنا يكرر دائما ان وايزمان هو الرجل الذي افسد ذهنه .

وليس غريبا ان تترجم افكار وايزمان الى الفلسفة الالمانية على يدي نيتشه . وليس غريبا اذن ان يكون المقال الاول لسلامه موسى عن « نيتشه وابن الانسان »(١) . وكانت اوروبا في ذلك الوقت تغلى بنظرية التطور . فالمسيحيون يحاربون المعول الذي يهدم « القاعدة الاصلية » للدين ، والملحدون يهدمون التسليم الغيبي للمسيحية ولكنهم يجمعون على ان الاخلاق المسيحية هي الاخلاق المثلى .

وجاء نيتشه ليهدم المسيحية من زاوية مجدها الاخلاقي . فقال ان الرحمة والتعاون والحب ، وكافة الفضائل المسيحية هي مجموعة من الدجل والخرافات تستهدف رعاية « الغوغاء » و « الدهماء » و «القطعان» وهؤلاء جميعا من فقراء وضعفاء ومرضى يعوقون التطور الانساني . في حين اننا يجب ان نخلص لنوعنا البشري ، بأن نبقى على الاقوياء في الذهن والجسم والروح ونعمل على افناء الاخرين ، حتى نحصل في النهاية على السوبرمان . فهو يصف الانسان الحاضر بانه جسر او قنطرة من القرد الى الانسان الاعلى . وواجبنا اذن ان نضحي بالضعاف حتى نضمن للجنس البشري ارتقاءه الاعلى .

وقد تلقف النازيون والفاشستيون اقوال نيتشه بلهفة، واستقبلها اعداء الديمقراطية بحفاوة بالغة وكأنه المسيح المنتظر .

ورغم ذلك فأنت تنتشى بسحره حين يقول مثلا « الزواج هو اجتماع ارادتين ، لايجاد شخص اعلى من الزوجين » و « الانتقام الصغير اكثر انسانية من العفو عند المقدرة » و « لانك جعلت الخطر حرفتك ، لذلك أدفنك بيدي » . وهذه الخمر اسكرت سلامه موسى . فالرغبة في ايجاد السوبرمان ، وتمجيد الاقوياء الممتازين ، واللغة الشعرية الساحرة التي عرض بها نيتشه افكاره .. جميعها تآمرت على تفكير الشاب المصري اثناء انغماسه في نظرية التطور ومناقشة وايزمان .

ولكن نهاية نيتشه في حياة سلامه موسى ، كانت كنهاية وايزمان . فقد عثر ـ فيما بعد ـ على من اخذ بيده الى الطريق الصواب ، حتى انه يحذر من يقرأ نيتشه بانه كالسم لا يظهر في العسل ، اما اثره فسرعان ما يبدو قاتلا .

والخمر لا تترك اخر كلمات نيتشه فيقول لشقيقته « عديني انني عندما اموت لن يقف حول نعشي سوى اصدقائي ، ولن يكون حولي احد من الغوغاء الفضوليين . واعملي على الا يلقى قسيس على قبري بضعة اكاذيب ، وانا عاجز عن حماية نفسي . ودعيني انحدر الى قبري وانا وثني شريف » .. ويعلق سلامه موسى على هذه الكلمات قائلا : ومات نيتشه، وفي نفسي له حب وعداء ، اقبال وصدود .

ولعل احد اسرار « العداء » الذي انتهت به العلاقة بين نيتشه وسلامه

(١) المقتطف ـ مجلد عام ١٩٠٩

هو الحرب الشاذة التي اعلنها الفيلسوف الالماني بلا هوادة على المسيح. فهو لم يجرده من الغيبيات فحسب ، بل عاداه لتزعمه الضعفاء والمساكين وحبه لهم .

وهذا السبب نفسه ، غرس الحب في قلب سلامه نحو الكاتب الفرنسي ارنست رينان . فقد جرد هذا الكاتب المسيح من الغيبيات ، وان لم يغفل دوره الكفاحي من اجل الناس ، ومناداته بالحب كعلاج سـام لمشكلات البشر . رسم رينان شخصية المسيح لدرجة فتنت سلامه موسى ودعته يقول « لقد احببت تلك الشخصية السامية التي وصفها رينـان في كلمات الحب والاعزاز ، والتي احاول مع العجز، ولكن مع الامل ، ان ارتفع الى الاخلاق التي رسمها في شخصية المسيح ».

واحترام سلامه موسى لشخصية المسيح لا يجره الى الخرافات المحيطة بهذا الانسان العظيم . فقد التقى سلامه في بدء حياته الفكرية بالطرقة التي حطمت هذه الخرافات . التقى بفولتير.

وليس لفولتير عبرة او دلالة واحدة لعصرنا ، وانما له عبر ودلالات كثيرة . فاننا نفهم منه ان حرية العقل وحرية العقيدة وحرية الضمير هي اثمن ما يملكه البشر . وقد حاربته الكنيسة الكاثوليكية بعنف ، فحرمت تداول كتبه واحرقتها وشردته بين فرنسا وسويسرا ، فكان يكتب رسائله بتوقيعات مزورة . ونجح فولتير في النهاية ، اذ فصل الدين عن الدولة وكفت الكنيسة عن محاربة اعدائها . وهو لم يكن ملحدا بالمعنى العلمي، ولكنه كان انسانا ، ولذلك فهو يقول « كلمة الالهي هي الوصف الوحيد الذي يليق بالانسان ، والطبيعة هي الكتاب الوحيد الذي يجدر ان نقراه والديانة الوحيدة هي ان يكون لنا شرف وامانة . وهذه الديانة الصافية الخالدة لن تكون سببا في الاذى »

واذا كان فولتير هو معول سلامه موسى الذي حطم به مثاليات الشرق، فقد كان البيرت شفيتزر هو النموذج الانساني الذي استولى على قلب الشاب المصري .

ملات شفيتزر في صدر شبابه رغبة حارة في خدمة الزنوج . وحين تساءل عما يستطيع ان يفصله من اجلهم ، كان الجواب انه دكتور فـي اللاهوت ، ويستطيع ان ينشر المسيحية بينهم. فاحس بمرارة وهـو يسمع الاقتراح ، لانه كان على يقين واثق بان من المبشرين من يحفـل تاريخهم العريض بالوان الجاسوسية ومساندة الاستعمار . وتسـاءل مرة اخرى : كيف نقدم للزنوج تعاليم المسيحية ، وهم قد عرفوا ان هؤلاء المسيحيين الذين تربوا بهذه التعاليم ، هم انفسهم الذين ينهبونهـم ويذلونهم ويحرمونهم الثقافة والمدنية والعدل والشرف ؟

ولذلك رحل شفيتزر الى باريس وهو في الثالثة والثلاثين ، حيث قضى اربع سنوات في دراسة الطب. وقضى بعد ذلك قرابة اربعـين عاما في افريقيا الغربية يعالج امراض الزنوج بالمجان ، ويجمع لهـم التبرعات من اوروبا وامريكا ، ويغرى الاطباء الاوروبيين بالهجرة الـى هذه البلاد النائية ، ليخدموا مسيحيتهم الخدمة الحقيقية . وعاد في سن الثمانين الى بلاده وهو اعمى ، اذ لم تتحمل عيناه شمس افريقيا .

والى هنا ـ كما يقول سلامه موسى ـ نستطيع ان نقنع باننا عرفنا انسانا بارا بالانسانية . ولكن شفيتزر كما كان رجلا مكافحا ، كان ايضـا مفكرا عميقا . فلم يتاثر سلامه بحياته فحسب ، وانما تاثر الى حـد كبير بكتابه عن المسيح. فقد عالج حياته بمشرط فرويد بما لا يرضـى المسيحيين. والنتيجة التي يستخلصها سلامه موسى من كفاح شفيتزر هو احترامه للحياة . واحترام الحياة مفتاح يهيء لنا التفكير السليم في تطور المجتمع البشري.

يقول سلامه « وتقبلت دعوته الى احترام الحياة في ترحيب وسرور، لان دراستي للتطور جعلتني على احساس عميق بوحدة الحياة نباتـا وحيوانـا وانسانا . ثم هو بعد ذلك لا يعترض بكلمة واحدة عـلى سمو الاخلاق التي دعا اليها المسيح ».

الوحـدة الوجـودية

وحدة الوجود التي رفعت الحياة في نظر سلامه موسى الى مقـام الالوهية ، هي المذهب الانساني الذي لا يفصل بين النفس والجسم او العقل والمادة او الفكرة والعمل . فالجماد والنبات والحيوان والانسان كلها شيء واحد . والانسان ـ اذن ـ ليس كائنا منفصلا ، وانما هو تعبير خاص للطبيعة « العامة » التي في الجماد والحيـوان والنبات . والحقيقة الاولى في هذا العالم هي التغير والاستحالة . فالطبيعة دائبة التحول والتشكل ، والفكر البشري نفسه قد نبع من الطينة التي نبضت بالحياة الاولى .

هذه الوحدة الوجودية ، هي اول ما دعا اليه الشاعر الالماني جوته . واثره في سلامة موسى هو اثر بذري رافق حياته كلها . فهذه النظرة العريضة الشاملة للحياة عند جوته ، دفعته الى ان يكتب الشعر ويجمع الحشرات ويشرح الضفدع ويضع جدولا للالوان ويجرب الكهربـاء الجلفانية ، دون ان يحس باية حواجز حاسمة بين مختلف انواع النشاط الانساني . ولذا من الخطأ ان نقول ان جوته حصر اهتمامه في الآداب والعلوم والفنون ، لان اهتمامه الاول كان بالحياة . وهذه النظـرة الموسوعية صاحبت تاريخ سلامه موسى الفكري، فقد استلهمها في اسلوبه العلمي البسيط ، كما استوحاها في ان تكون الحياة كلها خامة غنية لموضوعاته .

صدر حديثا

حاوية شرف !

مجموعة قصص رائعة

للقصاص العربي المعروف

الدكتور يوسف ادريس

دار الآداب ـ بيروت

والوصايا العشر التي شرب عصيرها سلامة موسى من يد جوته هي :

* على الانسان ان يميز بين المعارف والحقائق، وان يجمع معارفه واختباراته في فلسفة او دين . وعلى المثقف ان يستخرج الكليات من الجزئيات ، فيحس حركة التاريخ يوما فيوما .

* وعلى الانسان ان يتفاءل بمستقبل البشر في رحابة الحقائق التي وصلت اليه . فالرجل الناضج متدين . وديانته احترام الحياة . وكي نحترم الحياة يجب ان نعمل لرقيها وتطورها الى اعلى .

والعبرة التي حولت هذه الكلمات الى خلايا دموية التحمت بدماء سلامه ، ان جوته نفسه كان هذا الرجل الناضج.

وعلامات النضج في الانسان ان يرتفع من همومه الشخصية الى الاهتمامات العالمية . وفي الاديب ان يرفع الادب من آراء واحساسات تكتب الى ممارسة في الحياة . وان يتعرف الاديب الى قوات الخير البازغة فيؤيدها ، وينضم اليها ، ويكون من جنودها وقوادها .

وهكذا افاد سلامه موسى منهجا للحياة . وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع على حد تعبيره . ان غاية الحياة عند جوته هي الحياة . اي ان شخصيتنا ترتقي بتربيتنا وبسط الافاق امامنا للتعلم والاختبار ، حتى نزداد فهما لانفسنا وللطبيعة ، فنزداد بذلك استمتاعا .

*

والصديق الجديد الذي ارتاح اليه سلامه موسى في جولته الذهنية بين معلميه ، هو الفيلسوف جون ديوي. وديوي في فلسفته يؤكد حقيقتين، سبق ان اوضحهما جوته وهما :

* اننا وكل الاشياء حولنا في صيرورة ، ولسنا ثابتين على حال لا تتغير .

* كل ما في هذا الكون هو وحدة لا تنقسم ، فليس هناك فرق بين الماديات والمعنويات . ولكن ديوي اوضح حقيقة هامة جديدة ، وان كانت نتيجة للحقيقتين السابقتين، وهي ان معارفنا عن الاشياء والكون مؤقتة، اي لوقتنا او عمرنا هذا فقط . وهي لذلك ليست نهائية ، وبالتالي لا نستطيع ان نضفي عليها صفة الصدق الجبري ، ذلك لان هذه الاشياء جميعها في تطور ، وقصارى ما يمكن ان نقوله عن المعارف البشرية انها «آلة» او «وسيلة» نفهم بها الاشياء. وغاية هذا الفهم غير النهائي هي التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة البشر .

والذكاء عند ديوي اجتماعي ، اي انه ليس موهبة لبعض الممتازين ، ولكنه ظاهرة طبيعية نتيجة تفاعلنا المباشر وغير المباشر مع المجتمع.

والفلسفة عنده ، ليست ان نعرف اسرار الطبيعة ، بل هي ان نستخدم قوى الطبيعة .

والمدرسة في عرف جون ديوي هي جنين المجتمع . وحين تنطوي المدرسة على نفسها ، وتعلم النظريات ، وتلقى دروسا لا علاقة لها بالمجتمع تعود بالضرر على تلاميذها . ولهذا لا يجب مطلقا ان تنقطع عن الاتصال بالمجتمع . وينتهي ديوي الى ان الغرض من التربية هو ايجاد التلاؤم بين الفرد والمجتمع. وانه ليست هناك اخلاق ثابتة ، وانما هناك تغيرات اجتماعية تؤدي بدورها الى تغيرات اخلاقية . والاخلاق المثلى – اذن هي درجة التلاؤم بين فرد ما والمجتمع .

ولا يوافق سلامه الفيلسوف الامريكي على هذه النقطة ، بل يتساءل ما اذا كان من « الاخلاق المثلى » ان يتلاءم الفرد مع المجتمع الفاسد ؟ ام انه يثور ويشذ على هذا المجتمع ، فتكون ثورته هي فضيلته ؟

وما يربط سلامه موسى بجون ديوي هو التزامه الاسلوب العلمي في حل المشكلات الاجتماعية . فقد الح هذا الفيلسوف على استخدام الاسلوب التجريبي في كل شيء : في الآداب والفنون والفلسفة والموسيقى والاجتماع... الخ .. وقد اخذت الولايات المتحدة برايه في التربية ، وعممت نظام المدارس الارتقائية .

وهناك قيمة ثانية ربطت بين المفكرين ، فقد اعتبر ديوي المجتمع – اي مجتمع – هو « المربي الاول » للانسان ، وبقدر اتصال او انفصال الفرد عن مجتمعه ، تكون تربيته .

*

في احيان كثيرة ، كانت المدينة تخنق بعض من ارهفت حساسيتهم انفعالات معينة ، فيهربون الى الطبيعة الساذجة ، يجربون بدائية العيش ويبعدون عن ادخنة الحضارة الخانقة .

والكاتب الامريكي هنري ثورو احد هؤلاء الذين امتلأ وجدانهم بحب غامر للطبيعة ، واحساس عميق جدا بحنانها واكاد اقول امومتها. وهو لا يدعونا الى دراسة الطبيعة ، وانما الى ان نعيشها. فهو يصف الانسان الاجتماعي في المدينة ، بانه كائن صغير تشغله الهموم الصغيرة. يقضي ستة ايام يعمل ، ويوما واحدا يستريح. ويتساءل ثورو : لماذا لا يكون العكس هو الصحيح ؟ ونسي الكاتب الامريكي ان العكس هو الصحيح فعلا خارج نظام مجتمعه الاستغلالي. فالنظم الاحتكارية تشقي الايدي العاملة اطول فترة ممكنة ليحصل الاحتكاري في النهاية على اقصى ربح ممكن. ومن ثم تصبح علاقات الانتاج قائمة على النهب والامتصاص . ويهرب ثورو وزملاؤه الى الطبيعة بحجة واهية . والحقيقة ان الحضارة الانسانية لا يهرب منها احد ، لو ملك ناصيتها سادة الانتاج الحقيقيون ، الذين بواسطتهم تتغير علاقات البشر من طبيعة المجتمع الرأسمالي الى طبيعة المجتمع الاشتراكي الذي يكفل للانسان كل ما اراده ثورو من سعادة .

وثورو يقول « ان الالتصاق بالطبيعة لن يرهقنا بمطالب العيش كما يحدث في المدينة – ويقصد بالطبع مدينته الرأسمالية – فالبساطة والرغبة الحقيقية في حياة لا تصاحبها رغبة مزعجة في الاقتناء والتنافس، هو عنوان الحياة في الطبيعة » . وهكذا يعترف الكاتب الامريكي بان المباراة الاقتنائية هي السبب المباشر في لجوئه للطبيعة ، ولكنه تجاهل ان هناك نظاما آخر لا يقوم على التنافس والاقتناء ، في استطاعته ان يخلق المدينة التي يحبها .

والفراغ الكبير الذي يلقاه ابناء الطبيعة في احضانها ، فرصة جميلة عند ثورو للاختبار والكشف والمتعة . فالطبيعة مليئة بكل جديد، مما لا تيسر لنا ظروف المدينة فرصة اكتشافه . وهو يقدم لنا نفسه نموذجا عمليا ، اذ قضى عاما ونصفا في احدى الغابات حيث بنى كوخا صغيرا . ثم عاد مرة اخرى الى المدينة ، مما يحملنا على ان نفهم ان عودة البشر الى فطرة الغابة اصبحت مستحيلة .

وفي تجربة ثورو يكتشف سلامه دلالة هامة ، وهي ان « للفقر الارادي » او « العصيان المدني » كما دعاه ثورو ، قيمة يجب الا نستهين بها ، فحياة المدينة .. وما فيها من هرولة وعصبية وهموم ، كل هذا نستطيع النجاة منه بان نجعل شعارنا : كيف نستغني، بدلا من كيف نقتني . ولا ريب ان الدلالة التي اكتشفها سلامة موسى نتيجة طبيعية للمدينة التي عاشها ... المدينة الرأسمالية .

وسلامه موسى يقول ان الولايات المتحدة بعد مائة سنة من تجربة ثورو احوج الى عبرته مما كانت عليه في منتصف القرن التاسع عشر ، لان المباراة التي يعيشها الامريكيون هذه الايام ، اقتل للنفس وابعث للقلق

والخوف مما كانت في ايامه . والامريكي حين يقدم اليوم على تجربة ثورو هو رجل سعيد اذا قورن بالمهرولين العصبيين الذين يملأون مستشفيات الامراض العقلية .

ويقول ايضا « انه لمن الحسن ان ينبهنا كاتب باسرافه في الحب للطبيعة الى انه بجانب الشارع والنادي وسهرات الكحول وعد النقود وشراء الارض واقتناء الضياع والاسهم في الشركات ، بجانب كل هذا توجد ارض وسماء واشجار وزهور وانهار وجبال ، وان القمر يضيء في الليل ، فيكسو الحقول باشعته ، وان النجوم تناديا في الظلام كي نتأملها ونتحدث اليها . واننا من وقت لاخر يجب ان نختلي ونستوحد كي نعيد النظر في حياتنا ونسأل : هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية التي لم نفكر من قبل في قيمتها ؟ والا يجدر بنا ان نغير هذه العادات او ننقحها بالهام الطبيعة التي تردنا الى الاصول والجذور »

ولم يتأثر سلامه ذهنيا فقط بتجربة ثورو . فاننا نراه في ختام كتابه « تربية سلامه موسى »(1) يقول ان برنامجه في العشر السنوات القادمة بعد سن الستين هو الخاود الى القرية في سكينة وهدوء وتأمل . ولكنه لم يستطع ان ينفذ هذا البرنامج ، وقال لي انه وجد في ذلك الهدوء معنى للموت ، وانه سيظل ملتحما بضجيج المدينة حتى نهاية العمر.

اما غاندي، فقد تأثر بتجربة ثورو لدرجة كبيرة ، فقد نقل عنه عبارة « العصيان المدني » في معركته مع الانجليز. ونفذ « الفقر الاختياري » بان صام اكثر من نصف عام على فترات كي يحمل الهندوكيين والمسلمين على الاخاء . وبذلك رفع السياسة الى مستوى القداسة .

والنسك او الرهبنة التي اكسبها غاندي معنى جديدا ، ايقظت في سلامه روحا اوروبية للتقشف ، وفي ذلك يقول : « واني لاكتنز كنوزا نفسية في حياتي لا ارضى بها بديلا . هي اني عشت وعاصرت تولستوي وبرناردشو وشفيتزر وغاندي. وجميعهم قديسون . وليست قداستهم من ذلك النوع القديم حين كان ينزوي الراهب في صومعته بعيدا عن المجتمع كي ينشد خلاص نفسه فقط. لان هذا الراهب في صميمه انانى يطلب الخلاص لنفسه فحسب. ولكن هؤلاء القديسين العصريين كانوا يتألمون ويصومون ويكافحون من اجل خلاص البشر . وقد استطاعوا ان يغيروا الاوزان والقيم البشرية ، وان يغرسوا في قلوبنا حبا جديدا ، وان يعلمونا اسلوبا فلسفيا للعيش »

والرهبنة الارادية التي فرضها هؤلاء العظماء على انفسهم لا تعتبر حرمانا من لذات معينة ، كما يفهم عن رهبان الديانات . لان عظماءنا لم يحسوا – وهم يحرمون انفسهم بالفعل – انهم حرموا شيئا .. وذلك في غمرة انشغالهم بالقيم الجديدة . فغاندي مثلا حرم على نفسه الاتصال الجنسي منذ كان في الرابعة والثلاثين ، ولم يفعل ذلك قهرا ، وانما كان الامر طبيعيا وسط اهتمامه بالاهداف الكبيرة .

وسلامه يرى في غاندي ماركسيا من حيث فهمه لطبيعة الاستعمار ، ومكافحته الانجليز على أساس الاكتفاء الذاتي بمقاطعة الانجليز . ولست ارى أية « ماركسية » في هذه الاشياء . فاي ساذج يعرف ان الاستعمار – في ابسط تعريف له – هو استغلال موارد الشعوب المغلوبة على امرها لمصلحة الدول الاستعمارية . واي ساذج ايضا يعرف ان الاكتفاء الذاتي – في ميدان الاقتصاد – يسهم في معارك الاستقلال بنصيب ملحوظ .

اما طبيعة الاستعمار – من زاوية الفهم الماركسي – فهي قمة النظام الرأسمالي من حيث كونه نظاما يكفل للقوى غلبة على الضعيف ... سواء كان هذا الضعيف طبقة في مجتمع ، او شعبا من الشعوب. ولا ريب ان هذا المعنى لم يخطر على غاندي ، والا كان في استطاعته ان يعيد النظر في طبيعة المجتمع الرأسمالي نفسه. وما كانت « المقاومة السلبية » اذن منهجا صحيحا ، تتمكن به الشعوب من سحق الاستعمار . وما انتصار الهند الا نتيجة موضوعية لظروف كثيرة .

واذا اردت ان افسر رأي سلامه موسى في غاندي « الماركسي » اقول ان سلامة نفسه في فترة من تاريخ مصر الوطني، صنع امتدادا لدعوة لطفي السيد السياسية « مصر للمصريين » فكون جمعية « المصري للمصري » التي دعت الى الاستقلال الاقتصادي (1) . ولكن التكوين الايديولوجي لسلامه والتكوين التاريخي لمصر كانا يختلفان تماما مع التكوين الايديولوجي لغاندي والتكوين التاريخي للهند . وهذا ما فات سلامه موسى حين وصف غاندي بالماركسية على اساس المشابهة والمقارنة ، لما قام به في الهند ، ولما حدث في مصر .

وعبرة ثورو هي ما يستخلصه سلامه من غاندي ايضا. فقد علمنا ان نعيش ليس بالاقتناء وانما بالاستغناء ، واننا نستطيع ان نحقق السعادة على الارض بالقليل من الحاجات دون البذخ الذي يضنينا بلوغه ، ثم نحس بالتعاسة اذا لم نحصل عليه .

*

والمجتمع الحائر القلق الذي عاشه ثورو ، هو نفس البيئة التي عاشها هافلوك اليس . ونحن لا نستطيع ان نقارن بين الطريق الذي سلكه ثورو وغاندي ، والطريق الذي سلكه اليس . فالخصومة الجديدة لم تقع بين الانسان والمدينة ، ولكنها بين الفرد والمعنى الاجتماعي للمدينة . وهذه

(1) طبعة ١٩٤٧ ص ٢٨٨ – نشر دار الكاتب المصري

(1) سلامه موسى : جيوبنا وجيوب الاجانب * تقويم المصري للمصري

صدر حديثا

الخندق العميق

رواية

بقلم الدكتور سهيل ادريس

قصة اسرة تسجل صراع جيلين في لبنان

دار الاداب – بيروت

بؤرة التفكير الانفصالي عند اليس حين عاش مع زوجته كصديقين يتزاوران في بعض الاحيان ، لا كزوجين يعيشان تحت سقف واحد ، وفي ذلك يقول « نحن نرى في الزواج حياة شاملة تحتوي جميع التفاصيل الاخرى في حين كان هذان الزوجان يريان فيه انه بعض الحياة فقط ، وانه يجب ان يترك الزوج حرا لا يتدخل الزواج في تفاصيل حياته ، لان الزوج انسان اولا له طموحه وآماله وحرفته وهوايته وملذاته . وهو يحب ان يجد الحرية في خلوه وفي استقلال لا يفسدهما عليه الزوج الاخر » (١) ولاشك ان هذا المفهوم « الذاتي » للزواج يتعاون مع المثالية في تفسيرها للنشاط البشري. لان المفهوم العلمي للزواج يتيح للفرد فرصة « انسانية » للمشاركة والحب والفهم ، لا تتحقق الا في جو سيكلوجي نفى « بعيدا عن الاستغلال العبودي الموروث » من قبل التقاليد الاقطاعية والراسمالية القائمة على السيادة الاقتصادية .

ويفسر سلامه موسى الشهرة التي لاحقت اليس بانه كان جريئا في علاجه شئون الجنس حين عرضها من زاوية الصحة لا من زاوية المرض. وهذا هو الفرق الحاسم بينه وبين فرويد . ويبدو هذا التفسير قاصرا اذا المنا بالمنهج الفرويدي في تشريح النفس البشرية . فالطفولة هي نقطة الانطلاق عند فرويد ، قبل ان تكون الظروف « مركب اوديب » للفرد. ومن ثم لا يكون فرويد قد عالج النفس من زاوية المرض او الصحة ، وانما باشر بحوثه على اساس الطفل « كخامة » لم تتعقد بعد بملابساتها المحيطة بها . بينما استطاع اليس ان يكتشف الجوانب السالبة والايجابية في المريض والصحيح على السواء. ويتساوى فرويد واليس اذن في جهلهما بالارض الاجتماعية للبشر وتفاعلها المستمر مع الانسان .

ويقول سلامه ان اليس حين يدعو الى الانفصالية في الزواج ، فهو ليس انطوائيا ، ولكنه يريد ان يلهب « احساسنا الاجتماعي » بالحياة . وعبارة الاحساس الاجتماعي تعنى الاهتمامات المتعددة بالفلسفة والفن والاختراع والاكتشاف ، لان هذه الاهتمامات في حاجة الى رصد القوى كلها في خلوة واستقلال . « وقد كان هافلوك اليس من هذه الناحية انسانا جديدا ، ولكنا لا نستطيع ان نبت براي فيهذه الجدة، هل هي للسعادة والخير ام للتعاسة والشر » والحق ان هذا القلق الذي استشعره سلامه موسى في حديثه عن اليس ، ينجم عن ان هذا المفكر الباحث كان تعبيرا صادقا وتجسيدا لروح الفردية المتفشية في مجتمعه. وتعبير « الاحساس الاجتماعي » الذي جاء به هو احساس بالنقص الاجتماعي. والصراحة الواقعية التي صبغت احاديث سلامه في شئون الجنس هي ما افاده من بحوث اليس .

داعية الشخصية

والرجل الذي يجب ان تتعرف عليه نساؤنا هذه الايام هو هنريك ابسن . فالمراة الشرقية في القرن العشرين ، هي نسخة قريبة الشبه من المراة الاوروبية في القرن الماضي.

لم تكن المراة في اوروبا ذلك الحين، تلبس الحجاب. ولم تكن سجينة البيت طول النهار . وانما كانت تخرج الى الحفلات والمنتديات ، وتغشى مع زوجها اماكن الفكاهة واللهو . وكانت ـ وهذا هو المهم ـ تؤمن في قرارة نفسها انها وصلت الى اقصى درجات الحرية .

وجاء هنريك ابسن ليوقظها من هذا الحلم . قال لها : انت واهمة ، ان ما تظنينه حرية ابعد ما يكون عن المعنى الاصيل لهذه الكلمة . وانزعجت المراة الاوروبية وهي تقرا « بيت الدمية » . وبدات تراجع نفسها وتفكيرها . وفهمت ان الحرية ليست هي احدث مودة في عالم الازياء ، وليست هي ارتياد الحفلات .. ولكنها الالتحام بالمجتمع ، والالتصاق بمشكلاته ، والتفكير في همومه ، والعمل على ارتقائه . ودخلت المراة الاوروبية المصنع والمستشفى والمعمل والورشة ، ولم تصبح هذه الدمية الجميلة التي وصفها ابسن .

ولم يقتصر الكاتب النرويجي في عمله الكبير على هذا المعنى . لقد اسهم في نقل الدراما من الاطار الرومانسي الى البناء الواقعي .. من التحليق في ضباب الاحلام الى ارض البشر .

وقد حاول سلامه الاهتداء الى المعنى العلمي لحرية المراة . وعثر في الناحية الاقتصادية على العامل الحاسم في هذه المشكلة(١) لان المساواة الاقتصادية بين الزوجين هي النبع الحقيقي للمساواة النفسية بينهما .

والفضيلة الثانية لابسن هو انه اكتشف « الحجاب » الحقيقي . ونجح سلامه موسى في تطبيق هذه النظرية على الرجل . وقال في ذلك ان الفرق بينه وبين المراة هو اختلاف درجي فقط . لان الرجل ـ داخل جدران المجتمعات المختلفة ـ يعيش ايامه خلف حجاب ذهني ونفسي. فالانسان الذي يحيا في اسر التقاليد وكانها من طبيعة الاشياء لا تتغير وفي غير حاجة الى التغيير هو انسان « محجب » . واذا كانت المراة قد تخلصت من كونها « لعبة البيت » فان على الرجل والمراة معا ، ان يتخلصا من كونهما لعبة الاقدار او لعبة المجتمع (٢).

والتلميذ المخلص لابسن هوبرناردشو. وشو هو الرفيق المخلص لسلامه موسى ، منذ التقيا في لندن ، ولم يكن الاديب المصري قد تجاوز العشرين عاما . وحين يبدأ سلامه حديثه عن شو يقول « يجب ان ابدأ بكتابه الاكبر وهو حياته » وقد فصل هذه الحياة في كتاب مستقل عن برناردشو (عام ١٩٥٧) وكان قد وعد قراءه بهذا الكتاب منذ ثلاثين عاما (٣) والخط الرئيسي الذي ينتظم صداقة سلامه لشو هو انه ـ اي شو ـ اتخذ اسلوبا في العيش يتفق وتعبيره « وانما يكون الانسان فاضلا اذا اعطى مجتمعه اكثر مما اخذ منه » .

وشو نقطة تحول هامة في المسرح الانجليزي ، فقد حوله من مسرح « ابطال » الى مسرح « افكار » ناقش بواسطته كثيرا من القيم العالقة بالاذهان على انها حقائق لا تقبل الجدل . فهو ينبذ الغيبيات ، ويناقش

ـ التتمة على الصفحة ٥٩ ـ

(١) هؤلاء علموني ص ١٢٧

(١) راجع « المراة ليست لعبة الرجل » تاليف سلامه موسى

(٢) انظر « الشخصية الناجعة » لسلامهموسى

(٣) انظر « التجديد في الادب الانجليزي الحديث » لسلامه موسى

الشعر العربي في المهجر الامريكي

دراسة فنية

بقلم

وديع ديب

السعر ٣٠٠ غرش لبناني

هؤلاء علموا سلامه موسى

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٩ ـ

مستقبل الانسان على المسرح في درامته « الانسان السوبرمان » ، ويصفها سلامه بانها تشبه الامتداد الطبيعي لكتاب « اصل الانواع » .

وقد شغف شو بمستقبل الانسان لدرجة ابعدته عن الاشتراكية حين دعا الى ان يكون الحكم للصفوة الممتازة ، وان يترك الضعاف يموتون بعوامل ضعفهم . ولكنه عاد بعد ذلك يقف الى صف ليسنكو حين اكد ان الصفات المكتسبة تورث. وفي هذا امل لاصلاح الوسط . اي انه يمكن الوصول الى السوبرمان بالاصلاح العلمي للوسط ، دون الحاجةالى تنازع البقاء . والحق انفكرة « الانسان الاعلى » هذه منذ قالها نيتشه الى الان هي دعوة غير علمية ، لانها افراز حتمي لطبيعة مجتمع مريض يحدد عظمة الانسان على اساس بيولوجي جامد ، مغفلا عوامل التقدم الانساني الاخرى . وهذا دليل جديد على مدى الحقارة التي يحسها ذلك المجتمع نحو الانسان الراهن .

وخير ما اخذه سلامه عن شو هو هذا الروح العلمي الذي يسود مؤلفاته ، فقد كان مثله علمي الذهن ، ادبي الوسيلة، فلسفي الهدف . تميز بالتفكير العلمي والتعبير الاولي . وهذا الى انه حبب اليه الاشتراكية، ونقلها عنده من منطق العقل الى عاطفة القلب ، بل جعل منها ديانته العملية . فليس البر عنده هو الاحسان او الصدقة ، وانما البرنامج الاشتراكي في توفيره للشعب طعام الجسم وغذاء الذهن وحرية الضمير والاقدام على المستقبل .

يقول سلامه « وهو ـ اي شو ـ بعد داروين ، جعلني استمسك بالتطور واجعل منه الديانة المذهبية لحياتي وفكري وموقفي البشري. وقد كان هو يقول بالحاجة الى وزارة للتطور تعمل لترقية السلالات البشرية ، وهذا تفكير يعلو علوا عظيما على الصفائر التي يشتبك فيها صغار الادباء»(١)

واعظم ما يبتهج له سلامه هو ان يسمع شو يتحدث عن الحب حين يرتفع الى الثلث العلوي من الجسم البشري. ويقول « حين اعود الى الافكار التي بثها في نفس برناردشو ، احس ان حياتي ترتفع الى مقام التاريخ ، وان لوجودي دلالة فلسفية »(٢)

*

قال ويلز « لو كنت على سفينة ومعي برناردشو ، وبافلوف العالم الروسي ، ثم تعرضت السفينة للغرق واضطررت للاختيار بين انقاذ بافلوف او شو ، لانقذت بافلوف بلا تردد.»

وهذه الكلمات هي السائل المر الذي جرعه « هـ.ج. ويلز » لسلامه موسى. فقد كانت رابطة الحب قوية بين سلامه وشو من جانب ، وبين سلامه والعلم من جانب اخر .

والخلاف بين ويلز وشو بدا داخل جدران الجمعية الفابية ، فقد رأى ويلز ان تهتم الجمعية بتحرير المرأة ، بينما رأى شو ان تتخصص في نشر المباديء الاشتراكية فقط دون اي هدف اخر. وخرج ويلز من الجمعية .

وويلز هو الكاتب الانجليزي الذي رفع الصحافة الى مقام الفلسفة(٣) فقد اتخذ منها وسيلة حية لنشر افكاره . ويمكن تلخيصها في ان العالم هو قريتنا الكبرى ، فما يصيب احد الاقطار في اخر الدنيا ، يجب ان نهتم به نحن ، وما يفيض عن حاجة بلد بعيد ، يلزم ان يفيد منه البلد المحروم . فهذا العالم ليس ملكا لاحد ، لانه ملك جميع البشر .

ولم يتنبه سلامه موسى الى النظرية الاستعمارية التي ينطوي عليها تفكير ويلز. فلم يضع هذا المفكر الانجليزي تخطيطا علميا للانتاج العالمي، حتى نضمن « عالمية الاستهلاك » . وما قوله بان العالم هو قرية البشر جميعا ، الا تأييدا للفتوحات الاستعمارية ، حيث انها تستهدف الاستيلاء على موارد البلاد المتخلفة « فما دامت لا تستطيع استغلالها على نحو مرض ، كان الاوروبيين يستطيعون استغلالها على نحو اكثر رضا » (١) واغفل بذلك ان « تاخر » هذه البلاد ليس شيئا جامدا ، فالتقدم العلمي يسهم مع الشعوب في السيطرة على ظروفها ، وبالتالي على مواردها .

ولم يكن ويلز ـ فيما كتب من قصص ـ يعني كثيرا بالشكل الجمالي لاعماله الفنية . وقد كتب قصته « الحرب بين الكواكب » معبرا عن شهوة الاستغلال الكامنة في محتوى النظام الراسمالي. وربما كانت هذه القصة هي التي الهمت سلامه موسى التعرف الحقيقي على ويلز ، حيث قال في ندوة ادبية (٢) ان الكاتب ـ اي ويلز ـ لم يولد فينا اساسا مضادا للحرب ، بل احسسنا انه يلتذ لتلك المعركة الخرافية بين الكواكب ـ بعد ان يستولي عليها البشر ـ وهذا تعبير غير مباشر على ان ويلز كان يمثل روح المجتمع الراسمالي النهمة المولعة بالافتراس والحرب (٣)

(١) و(٢) هؤلاء علموني ص ١٤١

(٣) «الصحفي هو اعظم الادباء في عصرنا» ويلز

(١) راجع « معالم تاريخ الانسانية » لويلز

(٢) قاعة فوكس « المركز الثقافي السوفيتي بالقاهرة »

(٣) مجلة العالم العربي عدد ديسمبر ١٩٥٧

صدر حديثا

كتـــاب

القومية والاشتراكية

في شعر الرصافي

اول دراسة من نوعها تكتب عن الشاعر

بقـــلم

هلال ناجي المحامي

تطلب من دار العلم للملايين

الثمن ٢٥٠ ق.ل او ما يعادلها

يقول سلامه موسى (ص ٧٧) « كان من حظي الحسن ان هبطت على الادباء الروس ، وانا في حوالي العشرين ، فارتفعت بذلك الى مستوى من التقدير للفن القصصي ، جعلني في مستقبل عمري ، اتأنق واحجم عن قراءة تلك القصص الانجليزية والفرنسية والامريكية ، التي لا ترتفع الى مقام المؤلفات العظيمة التي كتبها تولستوي ، ودستويفسكي، وجوركي، وجوجول ، وتشيكوف ، وتورجنيف»

اما دستويفسكي ـ بالذات ـ فقد تاثر به سلامه موسى لاعتبارين هامين . اولهما ان جميع قصص دستويفسكي دعوات الى الخير والحب والتضحية . وثانيهما حبه المسرف لشخصية المسيح ، حتى انه قال ذات مرة في حماس مفرط « لو ان احدا قال لي ان المسيح يجافي الحق ، ولو ان هذا القول كان صحيحا ، لاثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق ».

ولا شك ان الاطار الفني الرائع الذي صب فيه دستويفسكي هذه المعاني ، هو الذي اسكر سلامه موسى بخمر لم تبارح فمه . لان تلك الغلواء في التعبير عن الحب، احتلت منه مكان القلب. فأمثال دستويفسكي وتولستوي « يحبهم » سلامه بقلبه . لانه يحس بالراحة نحوهم ، والاطمئنان في احضانهم ، وكانهم قوة روحية تبعث الى الرضا . حتى انه يصف تولستوي بالابوة .

ومنذ ان صدر كتاب « هؤلاء علموني » وانا في نقطة خلاف هامة مع استاذي سلامه موسى. انه يؤكد ان من الممكن للانسان ان يحب الكاتب بقلبه دون عقله كما فعل هو نحو تولستوي ودستويفسكي. ولكني ارى ان الكاتب او المفكر او الفنان ، ليس من الاشياء التي تحب او تكره بالقلب دون العقل .. ذلك اننا لا نحب الكاتب لذاته ، وانما للتاثير او التغيير الذي يحدثه في الجماهير القارئة . فنحن حين نحب ، انما نحب هذا التاثير او التغيير .

والسؤال الان : ما هو التاثير او التغيير الذي احدثه دستويفسكي او تولستوي حتى يكونا جديرين بحبنا ؟

لقد اجاب سلامه موسى على هذا السؤال في نهاية مقاله الاخير في جريدة الاخبار . كان يعلق على فيلم « الاخوة كرامازوف » قائلا ان دستويفسكي لم يعد بذرة صالحة لتربتنا المكافحة . لقد اصبح « سما » وعندنا المصل الواقي في الانسان الكبير جوركي . ولعله اراد بذلك التنويه ان يعتذر عن ترجمته لجزء من « الجريمة والعقاب » عام ١٩١٢، رغم ان الرواية وظروفنا التاريخية في ذلك الوقت ، ما كانا يصنعان ضررا على اجيالنا .

وقد كانت الاحداث وحدها ـ في رأي سلامه ـ هي السبب في ابقاء دستويفسكي على ايمانه المطلق بالمسيحية. فقد حدث ان القي عليه القبض لاشتراكه في مؤامرة لترجمة احد كتاب اوروبا . وفي لحظة الاعدام ، اقبل رسول القيصر يحمل « العفو » . وكانت هذه المفاجاة سببا في تقويمة ايمانه المسيحي .

والمتعة التي يجدها سلامه في مرافقة دستويفسكي هو انه لم يقف عند اعتاب المسيحية جامدا، بل اخذ منها الجانب المضيء البناء ، وهو دعوة للتضحية والحب ، وجعل منها رسالته لاسعاد البشر . ولا يختلف التقديس العلمي للانسان عنه عند الكاتب الروسي ، الا في الوسيلة فقط. فهو يرى الانسان « افضل المخلوقات » والعلم يرى انه « افضل الموجودات » وكلاهما يسيران في طريق واحد .. وان اتبع احدهما جانبا ، واتبع الاخر الجانب المقابل .

*

والتحليل السيكلوجي العميق ، الذي انتهجه دستويفسكي في تشريح شخوص قصصه ، يتوقف عند حد التحليل دون التعليل ، والتشريح دون التبرير، والفن دون العلم . وهذا هو الدور الطبيعي للفنان ، وهو يختلف عن دور العالم . ولذا فاننا نقول ان سلامه موسى اخذ عن دستويفسكي الاضواء والظلال في انعكاسها عن النفس البشرية ، بينما اخذ عن فرويد النفس البشرية ذاتها .

وفرويد احد الخمائر الهامة في حياة سلامه . فقد اثبت هذا المفكر ان النفس البشرية ورثت وظائف وحشية قديمة ، واننا نألم ونبتئس لاننا في صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التي تمنعنا من ممارستها . ونستطيع ان نلحظ « التطور » كمنهج نفسي للبحث عند فرويد . وهناك حقيقتان يتفرعان عن نظرية فرويد هما : ان الشهوة الجنسية هي الحافز الاول للنشاط البشري.. وان مستقبلنا الاخلاقي والمزاجي والعاطفي يعتمد الى حد كبير على ايام الطفولة الاولى .

ورغم ان سلامه موسى درس تلاميذ فرويد : اولر ويونج وريفرز ، الا اننا نلحظ في آثاره الفكرية (١) تأججا ملحوظا بين المدرسة السلوكية الامريكية بقيادة واطسن ، والمدرسة العلمية الحديثة بزعامة بافلوف . فالمدرسة الامريكية لا تؤمن بالانفعالات النفسية في حد ذاتها ، وانما تحلل النشاط الانساني على اساس فسيولوجي . وربما كان هذا الاتجاه « رد فعل » للاتجاهات الميتافيزية في ميدان علم النفس . ولكنه اتجاه ميكانيكي جامد ينأى عن الواقع النفسي للبشر . ومدرسة بافلوف اكدت مشاعر الانسان وانفعالاته النفسية ، وان عللتها بالظروف البيولوجية والاجتماعية المحيطة به.

وتعريف فرويد للضمير الانساني ينبعث من صميم النظرية ، اذ يصفه بانه مجموعة من المحظورات تعلمناها منذ الطفولة . والحق ان فرويد كاد ينتحي جانب الصواب لو انه رافق الانسان في مراحل حياته المختلفة ، ودرس مجموعة ظروفه الخاصة ... حينذاك كان يدرك ان الضمير البشري يتطور مع الفرد بما يتلاءم مع تلك الظروف .

ومركب اوديب الذي اشتهر به العالم النمسوي ، يتلخص في ان الطفل يحب امه حبا جنسيا منذ ايام الرضاعة الاولى حيث يتمسح بها في لمسات جنسية .

وسلامه موسى لم يوافق استاذه في كل ما قاله ، بل هو يعترض عليه في عدة نقاط رئيسية :

* فايمان فرويد بان لنا غرائز موروثة ثابتة يعتبر شططا ، لانه اغفل قيمة المجتمع والبيئة في تغيير العادات الذهنية والاجتماعية للانسان .

* مركب اوديب ، لا يجب بالضرورة ان نؤكده كعقدة جنسية . فالطفل يغار من ابيه فعلا ، ولكنها ليست غيره جنسية تماما . اي مركب اوديب ليس ميزان النفس البشرية .

* الافكار البشرية جميعها ، انما هي رجوع انعكاسية مكيفة اي معدولة عن المرجع الاصلي . وسلامه هنا يتفق مع بافلوف .

حقيقة الامر ان فرويد وسلامه كليهما ، كانا في حاجة واضحة الى كلمات العالم الالماني مورجان حيث اوضح في بحثه المسهب الجذور البعيدة لاصل العائلة . وكشف عن حقيقة العلاقة التاريخية بين الابن من

(١) العقل الباطن ـ عقلي وعقلك ـ محاولات سيكلوجية ـ دراسات سيكلوجية ـ السيكلوجية في حياتنا اليومية .

جانب ووالديه من جانب آخر . وهي علاقة في منتهى التعقيد تتناسب طرديا مع تقدم المجتمع الانساني على مر العصور ، وتتصل بتطور الملكية الفردي مع الانظمة الاجتماعية المختلفة.

ولكن هذا الاختلاف الواضح البين بين المعلم وتلميذه ، لم يدع سلامه الا ان يقول ص ١١١ « كان فرويد بمثابة الخميرة ، التي بعثت عندي سلسلة من الافكار ، لما تنته حلقاتها ، وهذا هو اكبر فضل في تربيتي»!

*

وكما توصل فرويد الى ان سلوكنا الحاضر يرتد الى ايام طفولتنا الاولى، فقد اهتدى سلامهموسى الى الرجل الذييعيد حضارتنا الانسانية الحالية الى جذر واحد هو : مصر .

هذا الرجل هو اليوت سميث ، وكان مدرسا بطب القصر العيني ، ولكن هوايته شغلته عن مهنته ، فاحترف هذه الهواية بشغف وهي «تاريخ مصر ».

ونقطة البداية عند سميث ان الإنسان البدائي في مصر ، كان يجمع الطعام من الغابات .ثم رأى ، على توالي السنين ، ان فيضان النيل يعم الوادي في مواعيد منتظمة كل عام ، حتى اذا انحسر انطلقت النباتات تكسو الارض بخضرتها ، فكان يجد فيها طعاما . وفهم بالتكرار ان الماء اصل الحياة ، وهو اصل النبات ، فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك، ويضبط الري. وهذه هي الهندسة الاولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظمون الري ، وفلكيون يعينون اوقات الزراعة . وهؤلاء لا يزرعون ، وانما يعيشون بالفائض من المحصول وهنا تنشأ الحكومة يرأسها مهندس اوفلكي تنسب اليه صفات الالوهية لانه يدري ما يدريه غيره من الهندسة والفلك كانه ملك او اله ، فاذا مات صار قبره معبدا . وهذا هو الدين البدائي.

والارض الزراعية تحتاج الى حدود تحترم من الجيران ، والى محكمة تعاقب المعتدي ، والى صناع للالات الزراعية . ونشأت بذلك الحكومة والتجارة والفنون .. والحضارة الاولى .

والمرحلة الثانية من بحث سميث هي كيفية انتقال هذه الحضارة من مصر الى بقية انحاء العالم . ويقول سميث ان الوسيلة في ذلك هي البعثات المصرية التي كانت تسافر بقصد التجارة الى البلاد الاخرى. ويستشهد في هذا الصدد بما عثر عليه في بلاد كثيرة من آثار وكلمات ومعابد وعادات مصرية .

وعلاقة الحب التي نشأت بين سلامه واليوت سميث، ليست بدافع وطني كما يظن الباحث لاول وهلة ، وانما بدافع بشري . والخط الرئيسي الذي ينتظم دراسة سميث هو ان الوسط البيئي ـ وليس الذكاء الخارق ! ـ هو ما هدى المصريين الى الزراعة فالاستقرار فالحضارة الاولى. ولولا وجود نهر النيل بمواعيده الثابتة ، ما كان للمصريين هذا السبق.

يقول سلامه (ص ١٢٠) « لم اكن انبعث في دراساتي للفراعنة بباعث وطني. ولم يكن لفتوحات تحتمس ورمسيس وامثالهما ذلك الوقع الذي يحسه اولئك الذين يستخدمون التاريخ لاشعال الوطنية . بل كذلك لم تكن دراسة التاريخ عندي محض السرد للقصص والتراجم والحروب . وظني انه لو لم يكن وراء دراسة الفراعنة هذه النظرية القائلة بانتشار الثقافة من بؤرة الضريح المصري لما كان التفاتي يزيد على المطالعة العابرة. ولكن هذه النظرية كانت تحوي العديد من المركبات الثقافية التي جذبتني وحملتني على التفطن لاصول الحضارة ، ومن هنا اغراؤها القوي لاستمرار الدراسة. واحساسي نحو الفراعنة لذلك هو احساس بشري وليس وطنيا » .

وفي مكان اخر (ص١٢١) يؤكد ان « الحضارة عالمية ، فد اسهم كل شعب بنصيب فيها ، واذا كان للمصريين فضل الاختراع للكتابة ، فان للهنود فضل الاختراع للارقام ... ولولا الاغريق ما كان بمكن للمنطق ان يتغلب على العقيدة. ولولا الامبراطورية الرومانية ثم الامبراطورية العربية لما تعارفت الشعوب هذا التعارف الذي انتهى بوجداننا البشري الحاضر».

ماذا علموه ؟

راودني هذا السؤال كثيرا ، وانا أقرأ كتاب « هؤلاء علموني » : هل هؤلاء فقط هم الذين علموا سلامه موسى ؟ الكتاب نفسه يجيب : لا ! اذا ان مئات الكتب التي انكب عليها خلال حياته العريضة ، تحمل اكثر من المئاتية عشر اسما الذين احتواهم هذا الكتاب .

وقد نعلل ذلك بان اصحاب الاسماء التي وردت في هذا الكتاب ، هم الجذور الاصلية لثقافة الرجل ، وهم البذور والخمائر الاولى التي رسمت الخط الرئيسي الاول في خريطة حياته . وهذا صحيح . وان كان هناك اسمان ، لا اشك مطلقا في ان صاحبيهما كانا على صلة عميقة جدا بسلامة موسى ... وادهش كثيرا حين اجده لا يذكرهما في فصلين مستقلين،رغم انه ردد ذكر احدهما مرتين، وفي عدة صفحات ، بينما وصف الثاني بانه احدث انقلابا في تفكيره كله .

هذان الاثنان هما : تولستوي وماركس . والاول كان له الاثر الكبير في حياة المؤلف وتفكيره، حتى انه يلقبه بـ « بابا تولستوي » . وقد اوغل في ذلك لدرجة انه كان يتحدث عن غاندي مثلا ، وحين يذكر مزرعته التي اسماها « مزرعة تولستوي » ينسى غاندي تماما ، ويبدأ في الحديث عن تولستوي ، وهو حديث غرامي ملتهب بين رجلين يقدسان الشهوات الذهنية تقديسا كاملا . وكذلك الحال ، حين تحدث عن هنري ثورو ، فقد استطرد ـ بطريقة مغرية ـ في التحدث عن تولستوي وحياته ومأساته . فلماذا لم يرحنا ، ويكتب فصلا مستقلا عن تولستوي .. لقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٥١ ، ويبدو ان سلامه موسى تنبه الى هذه النقطة، فقد استطرد ـ بطريقة مغرية ـ في التحدث عن تولستوي وحياته والاثار الذهنية التي اوحى بها اليه .

والمعلم الثاني الذي نسيه المؤلف هو كارل ماركس . والتأثير الضخم الذي حفره هذا المفكر في قلب سلامه وعقله لا سبيل الى انكاره. حتى انه في احد كتبه (١) يصفه بانه اعظم فيلسوف في الوجود . ثم هو يقول في غمرة حماسه لنظرية سميث « ولا يعدل هذه الغبطة عندي ، سوى اهتدائي الى نظرية التفسير الاقتصادي للتاريخ » (٢) فنحن نرى ان هذه النظرية الاخيرة ، هي الميزان الحساس ، الذي يزن به سلامه كل ما التقى به فيما بعد ـ وفيما سبق ـ من نظريات . والنظرية في حياة كاتبنا لا تكتمل الا بالتطبيق ، وهنا نلمس مدى الخطورة الموضوعية لنظرية ماركس من حيث اقترانها عندسلامه بالتطبيق العملي. ورغم ذلك، فلم يفرد عنه للاسف، الا عدة صفحات نستمد من خلالها الاثر السيكلوجي

(١) سلامه موسى ـ برناردشو ـص ٧٨

(٢) هؤلاء علموني ص ١١٥

لمشوره على هذا المعلم . ولكنه عاد في كتابه « تربية سلامه موسى » (١) فاعتذر عن موقفه هذا بأن الفترة التاريخية التي نشر فيها كتابه ما كانت تسمح له بتلك الصفحات .

*

وقد كان المؤلف صادقا كل الصدق ، اذ اقتصر بعد ذلك على من ذكر من معلميه . فجميع مؤلفاته تثبت انه شغل بهم وبحياتهم وبنظرياتهم طول العمر . فهو يكتب مثلا كتابا كاملا عن « برناردشو » ، وكتابا عن نظرية اليوت شميث ، وكتابا عن « العقل الباطن » كما قدمه فرويد وتلامذته، وكتابا عن « غاندي والحركة الغاندية » وترجم جزءا من رواية دستويفسكي « الجريمة والعقاب » .

ومن هنا نستدل على اتصلة المفكر المصري باساتذته هي علاقة حب وصداقة ووفاء يدوم العمر . وان آثارهم السيكلوجية التحمت بدمه واكسبته دلالات حية .

ومن تلك الدلالات الايجابية نظرته التطورية للموجودات ، التي راقت سلامه موسى منذ تلقفها من داروين الى ان تهذبت النظرية نفسها فيما بعد على ايدي من تلاه من الفلاسفة والعلماء. وقد اكسبت هذه النظرية سلامه موسى روحه العلمي في التعرف على الاشياء ، واسلوبه التجريبي في علاج مشكلاتنا .

وبواسطة جوته استطاع ان يكون موسوعي الثقافة ، كما يتضح من مؤلفاته العديدة في الادب والفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلم النفس والبيولوجيا .

ومن ويلز اتخذ من الصحافة منبرا حيا لتبسيط افكاره وعرضها في وضوح.

وكان سلامه في كل ذلك ايجابيا حين افاد من اساتذته نظرياتهم وفلسفاتهم . حتى انه نقل عن هافلوك اليس طريقته التجريبية ، فدعا الى ان يكون الغاء البغاء في مصر ـ بالتجربة العملية ، اي ان نلغيه في مكان ما ونبقى عليه في مكان آخر ، ونسجل مدى ما سيحققه الالغاء من نجاح او فشل .

*

ومع ان سلامه موسى قد رافق الجاحظ وابن رشد وابن سينا وغيرهم من المفكرين العرب العظماء، الا انه لم يذكر واحدا منهم ضمن الذين علموه. والحق ان الرجل ـ كما قلت ـ لم يذكر سوى الذين خططوا منهج حياته الفكرية . ولم يكن من بين هؤلاء مفكر عربي . لان ظروف النشأة الاجتماعية لسلامه موسى لم تتح لم فرصة اللقاء المباشر مع الفكر العربي. فقد سافر الى اوروبا في سن مبكرة (١٦عاما) ، وما ان عاد الى مصر حتى كانت حياته قد اخصبتها تيارات الفكر الاوروبي الحديث التي لا تلتقي مع تيارات الفكر العربي القديم .

*

ملاحظة هامة نخرج بها من القراءة السطحية للكتاب ، هي ما نلمسه من « خروج عن الموضوع » في بعض فصوله . والحقيقة الثانية ، هي انه ليس خروجا عن الموضوع ، بقدر ما « هو خروج عن الشكل » . فقد تستوجب الفكرة التي يعالجها الاستشهاد بمثل معين او ذكر حادثة معينة . فليس هناك من خطأ حين يذكر هذا المثل او تلك الحادثة ، ولكن الخطأ هو ان يستطرد في تسجيل الملابسات والظروف التي صاحبت المثل او الحادثة . ويتضح هذا بشكل ظاهر في حديثه عن ثورو وغاندي ،

(١) طبعة ١٩٥٨ ـ نشر الخانجي بالقاهرة .

وجنوحه الى حديث طويل مسهب عن صديقه تولستوي. حقا انه من الواجب ان يذكر تولستوي عند الكلام عن غاندي ، فقد تاثر هذا الاخير به حتى انه انشأ مزرعة باسمه ، ونفس الموقف ـ او يشبهه ـ بالنسبة لثورو ، ولكن هذا لا يوجب الاستطراد الذاتي ، الذي لا يزيد القضية تأكيدا .

والملاحظة الهامة الثانية للقراءة العميقة ـ هذه المرة ـ للكتاب ، تقرنا على ان ملامح معينة ، او سمات محدودة ، تكاد تكون طابعا عاما مشتركا بين كل الذين علموا سلامه موسى رغم القرون المذهبية الشاسعة التي قد تفرق بينهم .

واولى هذه السمات هي « الثورة» فقد كانوا جميعا ثائرين ، سواء في ميدان العلم أو الادب او الفلسفة او التاريخ او النفس او الدين .

والسمة الثانية هي « الحرية » التي مارسها جميعهم في حياتهم وتفكيرهم ، وما انتهوا اليه من فلسفات .

واخيرا « العلم » الذي طبع كل افكارهم ، بالبساطة والوضوح والتجربة العملية، وتصفية الحقائق من المعارف .

والملاحظة الثالثة ، ان الكتاب الاول الذي كان يوليه سلامة عنايته الكبرى ، حين يتعرف على احد المؤلفين هو « حياة » هذا المؤلف . والعبرة الفلسفية التي استخلصها من خبراته وتجاربه في الحياة . وهذا هو التفسير الواقعي لحياة سلامه موسى ، التي تكاد تكون سيمفونية رائعة من الفلسفة والعلم والحب . لقد تعلم الرجل ان يحيا حياته . وهذه هي الدعوة التي تنعكس في كل مؤلفاته : ان نعيش حياتنا .

القاهرة — غالي شكري

صدر حديثا

المحيط في ادب البكالوريا

الجزء الاول

الاستاذ جبران مسعود

نصوص ـ أسئلة ـ دراسات ـ موضوعات ـ

مصادر ومراجع

اول كتاب من نوعه

توزيع مكتبة انطوان